

الفصل السادس

الدين

الدين جوهر ذاتية المسلم ، وذاتية الآخرين أيضاً . وكانت دار الإسلام هي قوام العالم المتحضر الذي تحكمه حكومة مسلمة ويسوده قانون إسلامي ، وأقليات غير مسلمة تتمتع بسماحة دولة الإسلام وبظروف وافقت عليها ، والفارق الأساسي بين هؤلاء والعالم الخارجي يرتكز في قبول أو رفض رسالة الإسلام .

وكان الإصطلاح الجسماني ؛ أو حتى الجغرافي البشري المتعارف عليه ذا أهمية ثانوية . وكما رأينا فإن الكتاب المسلمين كانوا يدركون حقيقة وجود شعوب أخرى خلف الحدود الشمالية ، وكانوا يطلقون عليهم الرومان ، أو الفرنجة أو العبيد ، وأسماء أخرى غيرها ، وكانت هذه الشعوب تتحدث بلغات مختلفة ومشوشة ، لكن هذا في حد ذاته كان غير محدود . وكانت هناك أجناس وشعوب خاضعة للسيطرة والنفوذ الإسلامي ، وبالرغم من أن المسلمين فضلوا تأسيس عدد محدود جداً من اللهجات المستخدمة في الإدارة والثقافة والتجارة . . إلا أنهم يسرفون في الموازنة بين اللهجات المحلية واللهجات المميزة للقارة الأوروبية .

وكان الدين هو الاختلاف الحقيقي ، وكان يطلق على الذين اعتنقوا الإسلام اسم مسلمين ، وكانوا جزءاً من حزب الله ، دون إعطاء أهمية للبلد ، أو القانون الذي يعيشون تحت سيادته . أما الذين رفضوا الإسلام فهم كفرة ، وتعني الكلمة كافر Kafir في الأصل من لا يعتقد في رسالة الإسلام ولا يؤمن بها وينكرها .

وتشير كلمة « كافر » إلى غير المسلمين كلهم ، ومع هذا . . فإن الاستخدام العربي والفارسي والتركي كان مترادفاً فعلاً مع الاستخدام المسيحي للكلمة . وينفس النظرة كان

ينظر إلى دار الحرب على أنها تتكون بصفة رئيسية من عقيدة ودولة معارضة ، اعتقد أنها العالم المسيحي أولاً ، ثم أوروبا أخيراً وبطبيعة الحال كان المسلمون مدركين تماماً لفكر الآخرين بالإضافة إلى المسيحيين . وبعض هؤلاء مثل الهندوس والبوذيين في آسيا كانوا في عزلة إلى درجة لا تسمح بوجود أي صدام بينهم وبين معتقدات وعادات شعوب الشرق الأوسط والبحر المتوسط الإسلامية .

وبعضهم الآخر مثل أفريقيا السوداء غير المسلمين ، وكانت للمسلمين علاقات وثيقة بهم ، إلا أنه كان ينظر إليهم أصلاً على أنهم مشركون وعابدوا أصنام ، ولكنهم غالباً كانوا محدودين . وقد عرفت في الشرق الأوسط ديارتان أخريان هما الزرادشتية واليهودية ، وكانت كل منهما محدودة جداً ؛ بحيث لم يكن لهما شأن كبير ، وفقدتا قوتها السياسية ، ولم ينظر إليهما على أنهما دولتان في حالة حرب مع الإسلام . أما اليهود فكان ينظر إليهم على أنهم أهل ذمة ، ولقد سمح للبقية القليلة من الزرادشتيين بأن يكون لها نفس الوضع بصورة أقل أو أكثر . وكان الاستخدام الرسمي لكلمة كافر في العهد العثماني لا يشمل اليهود ؛ ففي المعاملات المالية المتعددة ، وفي الوثائق الأخرى التي تتعامل في أمور الشعوب غير المسلمة . . كان الإصلاح العثماني المتعارف عليه هو الكفرة واليهود ، وواضح ضمناً أن اليهود هنا لا ينضمون تحت مصطلح الكفرة ، وهذا تعبير يدل على تفوق المسيحيين من ناحية ، وعلى الاعتراف بوحدة اليهود غير المتصدعة من ناحية أخرى .

وفي الاستخدام العثماني والتركي (الحديث) . . فإن كلمة كافر Kafir غالباً يحل محلها كلمة Gavur ، وهي تشير إلى الكفر بوجه عام والمسيحيين بوجه خاص - ودون شك . . فإن الكلمة هي تحريف لفظي لكلمة Kafir ، وربما تأثرت بالكلمة الفارسية الأقدم Gabr التي تعني في الأصل الزرادشتيين ، ولكنها في بعض الأحيان كانت تستخدم للدلالة على المسيحيين .

ومن الممكن رؤية التصنيف الذي يركز على الدين في التنظيمات الجمركية العثمانية، التي قسمت إلى ثلاثة أنواع من الضريبة الجمركية لا ترجع إلى نوعية

البضائع ، ولكن ترجع إلى التجار وديانتهم بصفة خاصة ، وكان أقلها للمسلمين العثمانيين أو الآخرين ، وأوسطها لأهل الذمة وأعلاها للحريريون ، وهم الذين جاءوا من دار الحرب . ومن الغريب أن اليهود كانوا يدفعون طبقاً للقسم الخاص بأهل الذمة ، مهماً كان ولاؤهم القومي والسياسي ، وحتى إذا كانوا قد حضروا من أوروبا . وكانت نفس القاعدة مستعملة في اتجاه عكسي ، ويمكن رؤية ذلك في التفسير الذي قدمه الفرس للامتيازات الخاصة بخارج الحدود ، والتي طلبها منهم الروس في بداية القرن التاسع عشر . وهؤلاء كانوا على وفاق مع المسيحيين الروس ، ولكنهم كانوا رافضين للمسلمين السنين الذين جاءوا من الامبراطورية الروسية .

وهكذا . . فقد كان الكافر مساوياً للمسيحي من ناحية الامتياز ، والأقطار التي كانت تتكون منها أوروبا طبقاً لتصوره الخاص ، كانت بالنسبة للمسلمين أراضي للكفرة ، وهي تعني المملكة المسيحية . ويبدو أن المقياس الديني للتطابق والاختلاف كان عالياً . ففي حين أن الزائرين من أوروبا للعالم الإسلامي كانوا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم انجليز ، وفرنسيون وإيطاليون وألمان . . الخ ، بين المشاركة كالأتراك ، أو الفرس ، فإن الزائرين المسلمين لأوروبا بالمقارنة سواء أكانوا قادمين من مراكش أم تركيا أم إيران ، كانوا لا ينظرون إلى أنفسهم إلا على أنهم مسلمون في مملكة مسيحية ، ولا يشيرون عادة إلى أنفسهم أو بلادهم بالألقاب القومية أو الإقليمية أو الجنسية . وكانوا يتحدثون عن بلادهم بلا استثناء بأنها أرض الإسلام ، وعن حاكمهم أنه حاكم الإسلام ، أو كانوا يعبرون عن هذه المعاني بتعبيرات مترادفة .

لقد بدأ المبعوثون العثمانيون في نهاية القرن الثامن عشر فقط في الحديث عن أنفسهم وعن بلادهم بشيء من التخصيص ، وذلك بأنهم عثمانيون وأنهم يمتازون في الشكل الإسلامي العام ، ومثلما أشار الرحالة إلى أنفسهم بأنهم مسلمون ، وأن جماعتهم هي جماعة الإسلام أشاروا - كذلك وببساطة عند الحديث عن الجماعات الأوروبية بلا استثناء ، أشاروا إلى أنهم كفرة . ويذكر أحد الأتراك الذين زاروا النمسا في القرن الثامن عشر أن "السفير النمساوي أرسل ثلاثة كفار ليقابلونا" (١) . وهذا يعني

أن السفير (أطلق عليه اسم النمساوي لأن الحكومات هي فقط التي تستطيع أن تعين سفراءها) قد أرسل ثلاثة رجال لمقابلتهم ، ولم تكن كلمة كافر تستخدم فقط في التعبير عن بعض الإشارات القومية أو السياسية الخاصة بالأوروبيين ، ولكنها أيضاً كانت تستخدم بصورة متكررة وكبيرة لتحل محل كلمات أساسية كثيرة ، مثل الشخص أو الرجل أو الإنسان .

ويعتبر الأوروبي مختلفاً ، لا لأنه ينتمي إلى بلد آخر ، أو لحاكم ، أو لأنه يعيش في مكان آخر ، أو يتحدث بلغة أخرى ، ولكنه مختلف لأنه يتبع ديانة أخرى . ونتيجة لهذا الاختلاف . . فقد اعتقد أنه عدو وعرف بأنه في مرتبة أقل . ودون شك . . فإن استخدام الأساليب الخاصة بالدعاية والإعلان الحديث كان معروفاً جيداً ، فإن الكتاب عن المملكة المسيحية استخدموا تكرارات لأحد لها للتأكيد على هذه النقاط ، فلم تذكر أي دولة ، أو مجموعة أو شخص أوروبي بدون ذكر كلمة كافر سواء كضمير ، أو كصفة ، إلا في استثناءات قليلة ، ولكن في بعض الأحيان - خاصة في كل المعاملات الرسمية والكتابات التاريخية - يكون من الضروري التمييز بين الدول أو الشعوب المختلفة ، وفي هذه الحالة كان يشار إليهم على سبيل المثال كآلتي : الكفرة الإنجليز ، والكفرة الفرنسيين ، والكفرة الروس وهكذا . وغالباً كانت هذه الصفة تؤكد باستخدام بعض صفات السباب واللعنات ، وكانت تأتي عادة على شكل قافية أو سجع .

وفي الاستعمال العثماني كانت لكل شعب سجعه الخاص ، مثل انجليزي دنس وفرنسي نجس ، وهنجاري منحوس ، وروسي موكوس ، وألماني قاسي القلب . . وهكذا . وبالنسبة للبلاد الإسلامية كان يوجد السجع الموجب والسالب وفقاً للظروف . أما بالنسبة للكفار . . فكانت كلها سالبة ، وكانت تحذف عند التعبير عن حسن النية^(٧) . وكانت أسماء الأشخاص الأوروبيين في الكتابات التي ترجع للعصور الوسطى تصحبها عبارات سباب ثابتة ، ولم يكن هذا السباب سطحياً على الإطلاق ، ولكن كانت هناك تأكيدات ذات أهمية ، يصرح بها لتدل على سباب واضح . وكان الاستعمال الذي يشير إلى الأوروبيين بأنهم كفرة مستمر ومنتشر بصورة ملحوظة . وعلى سبيل المثال . . فهي

موجودة في الخطابات التي كان يقصد منها الصداقة والمجاملة والمرسلة من الحكام المسلمين إلى الملوك المسيحيين الأوروبيين . وهكذا . . نجد السلطان مراد الثالث يكتب إلى الملكة إليزابيث ملكة إنجلترا ، يخبرها بانتصاراته ضد الكفرة النمساويين والهنجاريين ، ويلتمس من الملكة "الاتجاه والتقدم نحو الكفرة الأسبان ، وأنها سوف تنتصر عليهم بمساعدة الله" ، ويعبر عن حسن النية إلى حد ما تجاه الكفرة البولنديين والبرتغاليين "الذين هم أصدقاؤك" . وحتى إن "جليبي" الذي يكتب في منتصف القرن السابع عشر لا يزال يجد أنه من الضروري أن تصاحب كل إشارة عن الفرنجية بعض العبارات مثل اللعنات والدعاء بالخراب والجحيم المقدر لهم وما يشبه ذلك . وسجل موظف عثماني رسمي في نهاية منتصف القرن الثامن عشر في تقريره عن العمل الذي كلف به لتحديد خط الحدود الفاصل مع النمساويين ، وهو يبدأ تقريره بالإشارة إلى تحرير بلجراد "دار الجهاد" من "أيدي النمساويين الكفرة السارقين" (٣) . وبصفة عامة . . فإن السياسة الأوروبية والأعمال الحكومية الأوروبية والأفراد ، وصفت بصفات ، تنطوي على الشر ، مثل الأذى : التآمر والدسائس ، والحيل ، وتعبيرات أخرى تشير إلى السفالة .

وعموماً . . فإن هذا التصميم كان غالباً ذا أساس ، وكان يعد من البديهيات ، واستمر استعمال مثل هذه العادات اللفظية بصورة جيدة في العصر الذي كانت فيه الامبراطورية العثمانية تشارك بصورة مباشرة في شئون أوروبا سواء أكان مع الحلفاء ، أم مع الأعداء عندما بدأ الموظفون الرسميون والمؤرخون العثمانيون في توجيه الاهتمام نحو النقاط الدقيقة في العلاقات العالمية الأوروبية . ولم تحذف ألفاظ السباب هذه نهائياً إلا في أواخر القرن الثامن عشر ، وحتى بعد ذلك التاريخ . . استمر الدبلوماسيون المسلمون يشيرون في تقاريرهم بكلمة كافر المحطة من القدر لكل شخص أو مجموعة أو هيئة قابلوها . ومع القرن التاسع عشر . . فإن هذه اللغة بدأت في الانقراض عند استعمال الوثائق والتاريخ ، بالرغم من أنها ظلت مستعملة بصورة شائعة ودارجة لفترة أكثر تأخراً .

ونظراً لإعطاء الديانة مركز الصدارة بالنسبة لاهتمامات المسلمين حتى من قبل الدولة . . فمن المتوقع أن يوجد بعض الاهتمام تجاه الديانة في العالم الغربي . ولقد أشار جزء كبير من المبعوثين والمؤرخين المسلمين إلى الأمور الدينية ، ولكنهم لم يظهروا اهتماماً كبيراً تجاه المسيحية الأوروبية وقدموا عنها معلومات قليلة جداً ، فلقد عرفوا أن الأوروبيين كانوا مسيحيين ، وكان هذا كافياً بالنسبة لأغلبهم ، ومع كل هذا فلم تكن المسيحية جديدة بالنسبة لهم ، بل كانت الديانة السابقة على الإسلام مباشرة ، ولا تزال ممثلة في أقليات كبيرة في الأراضي الإسلامية . ومن وجهة النظر الإسلامية . . كانت الديانة المسيحية موضوعاً في الاعتبار ومفهومة .

ولقد كان لدى المدارس المسلم في العصور الوسطى مؤلفات أوروبية كبيرة باللغة العربية عن المعتقدات والشعائر المسيحية ، وربما تجمعت منها معلومات مفصلة إلى حد ما عن التاريخ المبكر للمسيحية وعن المدارس المختلفة والطوائف داخل الكنيسة . هذا الاهتمام المبكر لم يكن متواصلاً ، ويبدو أن المناقشات التي مارسها المؤلفون عن المسيحية كانت تعتمد على النصوص الإسلامية المبكرة ، أكثر من اعتمادها على الملاحظات أو المعلومات الجديدة . وهكذا . . فإن "كاتب جلبي" في بحثه العلمي الذي كتبه عن أوروبا في ١٦٥٥م يبدأ بتعليق عن الديانة المسيحية في العصر الوسطى تقريباً . ويذكر لقرائه أن هذه الديانة تركز على أربعة أناجيل أحصاها بصورة صحيحة ، وإذا ماقورنت بالإسلام فإنها تركز على خمسة أسس رئيسية هي : التعميد ، والثالوث المقدس ، والتجسيد ، والعشاء المقدس ، والاعتراف . ولقد خصص جزء مختصر لكل من تلك الأسس ، تحت المعلومات عنه شاملة إلى حد ما ، فقد كانت موجودة في الكتابات العربية الكلاسيكية ، ويفسر هذا بأن المسيحيين كانوا ينتمون إلى ثلاث مدارس ، أو طوائف رئيسية ، والكلمة التي يستخدمها "مذهب" Madhhab (باللغة التركية Mazheb) وهي عادة تشير إلى المدارس الأربعة الخاصة بالفقه السني . والمدارس المسيحية الثلاثة هي : اليعقوبية ، والملكانية ، والنسطورية ، ويقدم "كاتب جلبي" تفسيراً لمذاهبهم المختلفة يعتمد على طبيعة المسيحية الإنسانية المقدسة . بحدوث

مباشر . . فإن اليعاقبة هم أتباع الكنيسة السورية الخاصة بيعقوب البرادعي ، ويبدو أنه يعني أصحاب الطبيعة الواحدة بصفة عامة ، وهذا يظهر من إشارته بأن معظم اليعاقبة أرمنيون ، والمالكانية هم أتباع المدرسة التي اتفق على إنها الأرثوذكسية وهي مدرسة الروم اليونانيين والرومان .

ويفسر النسطورية بأنها مجمعة متأخرة انفصلت عن المذهب المقبول الشائع ، وشكلت طائفة منفصلة . ولقد تضاءلت كنائس اليعاقبة والنساطرة أيام "كاتب جلبي" إلى قدر طفيف ، وكانت كنائس الأرض والأقباط رعايا للحكم الإسلامي . ومن مثل هذه الاختلافات الأخيرة حدث الانشقاق الذي قسم الكنيسة المالكانية إلى أرثوذكسية يونانية شرقية وكاثوليكية رومانية غربية ، والتقسيم الجديد في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية الغربية ، الذي كان سببه الإصلاح الديني البروتستانتي الذي نعتقد أنه أكثر أهمية بالنسبة للمراقب العثماني من المحاولات الأوروبية الخاصة باليعاقبة والنساطرة ، ولم يذكر لنا "كاتب جلبي" شيئاً يذكر عن كل هذا^(١) .

إلا أن الاختلافات بين الكاثوليك والبروتستانت لم تصرف الاهتمام تماماً فهناك شرح لأحد المؤرخين العثمانيين عن الحروب الدينية في وسط أوروبا . فهو يذكر لنا أنه في يوم ما . . كان إمبراطور النمسا يشعر بالحزن والاكتئاب بصورة اضحة والدموع تملأ عينيه لدرجة أن زوجة ابن ملك إسبانيا سألته عما يؤلمه . فقال إن سبب القلق هو الاختلاف بيني وبين السلطان العثماني . فكلما أرسل السلطان أوامره باستدعاء الأمراء الذين تحت سلطته ليأتوا بقواتهم للخدمة في جيوشه حضروا في الحال ووضعوا أنفسهم رهن إشارته دون شرط ، أما حين يرسل إمبراطور النمسا هذه الرسائل إلى أمراء هنجاريا فإن تلك الرسائل لا تمثل موضوعاً يشغلهم بحيث يقدمون له أية خدمة أو امتثالاً لأوامره ، وأجابت الامبراطورة على هذه الشكوى بقولها "إن محاربي الباشا العثماني متمون إلى عقيدته وكيانه ، وهذا هو سبب طاعتهم له ، بينما يرفض امراؤك الهنجاريون الامتثال لك لأنهم على ديانة أخرى غير ديانتك" ، فأعجب الامبراطور بهذه الإجابة ، وأرسل المبعوث والكهنة في الحال إلى الأمراء النهجاريين وأمرهم "بالتحول

إلى عقيدة المضللة". ولقد قبل بعضهم هذا ، لكن أكثرهم رفضوه ، مما أدى إلى طغيان أكثر . وهذا يفسر لماذا أرسل الله العلي العظيم ، الذي لا يغفل عن أي بشر ولو كان كافراً ، الجيوش الإسلامية ضده ^(٥) . أيضاً "إفيليا جلبي" الذي رحل عبر المجر والنمسا ، وهم أقدم من السابق بفترة قصيرة ، إن الاثنين يتميان إلى كنيستين مختلفتين ؛ فالهنجارويون ينتمون إلى عقيدة اللوثريين ، في حين أن النمساويين "يطيمون قداسة البابا" . ولقد سجل أنه بسبب هذا كان كل يواجه الآخر بشراسة كلاهما مسيحي . . فقد اجتمعا معاً ضد المسلمين ؛ لأنهم طبقاً للكلمات الإسلامية التقليدية التي أشار إليها "إفيليا جلبي" بأن "كل غير المؤمنين كانوا على ديانة واحدة" ^(٦) .

ويبدو أن البيروقراطية العثمانية كانت أكثر انتباهاً من العلم العثماني لأهمية الاصطدام بين البروتستانت والكاثوليك وقيمته المحتملة للباحث الإسلامي . وجزء منها ربما يرجع إلى المعلومات التي احضرها اللاجئون المسلمون من إسبانيا ، وجزء يرجع إلى المجهودات التي بذلها بعض المبعوثين البروتستانت الذين أظهروا أنفسهم بأنهم موحدون زاهدون أكثر التصاقاً بالإسلام عن العبادات الصورية والكاثوليك المشرك ، وقد كان ذا أهمية تناسب التجارة أو أي أمور أخرى . ويبدو أن العثمانيين لم يكن لديهم أي اهتمام بمثل هذه المناقشات ، ولكن من حين لآخر كانوا يضعونها تحت الفحص . وعندما قام الموريسكون Moriscos بثورة إسبانيا عام ١٥٦٨ - ١٥٧٠ أرسل لهم السلطان رسولاً خاصاً ليجذب اهتمامهم لصراع اللوثريين المستمر ضد "هؤلاء ، الذين كانوا رعايا لقداسة البابا ولمدرسته" ونصح التمرديين بتأسيس حركات سرية ضد اللوثريين ، وذلك عندما قاموا بالحرب ضد قداسة البابا لفرض عقوبات على المقاطعات الكاثوليكية وعلى الجنود الذين في منطقتهم ^(٧) . وقام سليم الثاني بإرسال عميل سري لمقابلة قادة البروتستانت في هذه المقاطعات . ويسجل خطاب ملكي عثماني الاهتمام الشائع بين المسلمين واللوثيريون الذين كانوا أيضاً في حالة حرب مع الكاثوليك ، ورفضوا قبول عبادتهم للأصنام " حيث إنك قد رفعت سيوفك ضد تابعي الكنيسة الكاثوليكية ، وحيث إنك قد نظمتهم بصفة منتظمة ، فإن رأفتنا الامبراطورية واهتمامنا الملكي قد

خصص لك وهو في الطريق لبلدك ، وحيث إنك لم تكن عابداً للأصنام ، وإنك قد أبعدت عابدي الأصنام والصور عن الكنائس ، واعتنقوا ديانتك بحبل الله العلي العظيم ، هو الواحد وعيسى المقدس هو رسوله وخادمه ، وهم الآن يلتمسون بالقلب والروح العقيدة الصادقة ، ولكن ادعى غير المؤمنين أن البابا لم يعثر على ضالته في نسب القدسية إلى عيسى المقدس (عليه السلام) ولقد ألفت عبادة الأصنام والصور التي صنعها بيديه الشك في وحدانية الله ، وحرضت كثيراً من خادمي الرب على السير في طريق الخطأ هذا ^(٨) . ولقد كان الاهتمام العثماني بالملكة اليزابيث الإنجليزية له اهتمام مشابه فيما بعد مع البرتستانت ليسوا كخلفاء ، لا قدر الله ، ولكن كتشويش مفيد للقوى الكاثوليكية . وهكذا استطعت الهيئة الباباوية أن تهرب بصعوبة من دائرة الاهتمام الإسلامي ، وقد علق كثير من الكتاب المسلمين على الظاهرة الغربية لحكام الروم ، وهو نوع آخر من نظام الملك الكاهن أطلق عليه اسم البابا Al-Bab ، ولم تكن في الإسلام وظيفة كاهن أو نظام كنسي ، وكان من الصعب على المسلمين إدراك ظاهرة التنظيم الموسع للكنيسة المسيحية ، وقد أدت المعرفة اللبقة للنظام الإداري للكنيسة الغربية في العصور العثمانية إلى أن تكون مثل تلك الهيئات واضحة . ولذلك . فإن أول من ذكر البابا ، هو أمير عربي يسمى هارون بن يحيى ، الذي زار روما حوالي ٨٨٦م ، ولقد سجل بوضوح أن روما مدينة يحكمها ملك يطلق عليه اسم البابا وهو لا يقدم أي شرح لهذا اللقب . ويبدو أن إطلاق هذا اللقب كان بمثابة اسم شخص . ولقد جاء التعليق عن روما في القاموس الجغرافي لياقوت كاملاً شيئاً ما : "في الوقت الحالي روما في أيدي الفرنج ويطلق على ملكهم اسم ملك الألمان ، ويسبب فيها البابا ويطيعه الفرنجة وهو بالنسبة لهم في مقام الإمام . وإذا لم يطعه احد منهم اعتبروه متمرداً وشريراً ، يستحق النفي والعقاب والموت ، وتفرض عليه عدة تحريات تختص بنسائهم وجنودهم وطعامهم ، وشرابهم ، فلا يستطيع أحد أن يخالفه" ^(٩) .

ويبدو أن بعض الأمور الخاصة بهذه الهيئة قد انتقلت إلى الأجزاء الشرقية من العالم الإسلامي ، ففي القرن الثالث يتحدث الشاعر الفارسي الخاقاني في قصيدة

هجائية عن بطريك الزمان البابا بطرس في ذلك الوقت^(١٠) . ويبدو أنه يخلط بين تلك الهيئة وبين البطريركية الخاصة بالكنائس الغربية ، وهو الخطأ الشائع لدى المؤلفين المسلمين المتأخرين .

لقد ذكر المؤرخ السوري ابن واصل^(١١) أحد التعليقات الأولى عن السلطة الباباوية ، وقد زار جنوب إيطاليا كمبعوث دبلوماسي عام ١٢٦١م ، وهو يقول عن البابا "والبابا يرومية هو خليفة المسيح عندهم ، والقائم مقامه ، وإليه التحريم والتحليل والقطع والفصل" . ولقد قدم مزيداً من الكتاب المؤرخين تعليقات متشابهة ، واحد منهم هو المؤلف التركي للمغامرات ، الذي قد سجل شيئاً فوق العادة وهو الاعتقاد المسيحي بأن البابا يستطيع أن يغفر الخطايا ، ولم يسبب مثل هذا الوضع لسلطان البابا دهشة بين الزائرين القادمين من الأراضي المسلمة ، فلقد كان المسلمون شديدي المعرفة بالسلطة الدينية ، وفي الحقيقة لم يعترفوا بأي دين آخر ، كما أن الإسلام لم يعترف بالرومانية كشيء يميز للسلطة الدينية بين الجنس البشري . وبالنسبة لهم . . فإن السلطات التي منحست للبابا كانت تخص الله وحده . ويستطرد ابن واصل حديثه قائلاً: "وهو الذي يلبس الملوك تيجان الملك يقيمهم . ولا يتم لهم أمر في شريعتهم إلا به . ويكون راهباً ، وإذا مات قام مقامه من هو أيضاً متصف بصفة الرهبانية"^(١٢) .

ونجد ملاحظة أخرى مختصرة عند القلقشندي عن الباب ، وذلك في كتابه عن وظيفة المجلس القضائي الكنسي يقول فيها : "مكاتبة البابا ، وهو بطريك الملكية ، القائم عندهم مقام الخليفة ، والعجب من جملة في "التثيف" بمنزلة القان عند التتار ، والقان إنما هو بمنزلة ملكهم الأكبر ، والباب ليس من هذا القبيل ، بل إليه أمر الديانة حتى في التحليل والتحريم .

وقد تقدم في الكلام على المسالك والممالك عند ذكر البطارقة أنهم كانوا يسمون القسيس ونحوه أباً ويسمون البطريرك أباً ، فأحبوا أن يأتوا على البطريرك بسمه له تمييزه عن غيره من الآباء ، فاختاروا له لفظ البابا ، وإنه يقال فيه الباب والبابا أبو الآباء ، ثم لما غلب الروم على المملكة ، وعلت كلمتهم على العاقبة ، خصوا اسم الباب

بيطريكمهم ، فصار ذلك علماً عليه ، ومقره مدينة رومية على ما تقدم هناك ، ورسم
المكاتبة إليه على ما ذكره في التثقيف ضاعفاً لله تعالى بهجة الحضرة السامية ، الباب
الجليل ، القديس الروحاني ، الخاشع ، العامل ، بابا رومية عظيم الملة المسيحي ، قدوة
الطائفة العيسوية ، ملك ملوك النصرانية ، حافظ الجسور والخلجان ، ملاذ البطارقة
والاساقفة والقساوسة والرهبان ، تالي الإنجيل ، معرف طائفة التحريم والتحليل ،
صديق الملوك والسلاطين

هذا ما وجدته مسطوراً ولم يكتب إليه شيء في مدة مباشرتي ، ولا أدري في أي
شيء كان يكتب إليه ولا عرفت تعريفه ^(١٢) .

وهناك تفسير عن البابوية كان تاريخياً ومعاصراً يوجد في التاريخ الجامع
"لرشيد الدين ، وهو الذي كتب في إيران في السنوات المبكرة للقرن الرابع عشر ،
وهي مستقاة طبقاً لما ذكر من المبعوث البابوي ، ومن التاريخ الممثل . وفي بحث
" كاتب جلبي " القصير عن أوروبا ، يشتمل على فصل عن البابوية به قائمة رئيسية
بيده البابوات وتواريخ انتخابهم ومدة ولايتهم بدءاً ببطرس ومنتهاً بالبابا بول الثالث ،
حيث من المعروف أنه أصبح بابا سنة ١٥٣٥ ^(١٣) وبرغم أن ما ذكره " كاتب جلبي " عن
الباباوات ، لم يكن به أي ذكر لموت بول الثالث الذي كان عام ١٥٤٩ أو لأي من
خلفائه . . فمن الممكن الاعتقاد بأن مصدر المعلومات الذي استخدمه كان عمره أكثر من
مائة عام . ومثل كثير من الأمور الأخرى . . فإن المؤلف المسلم في هذا الأمر لم يشعر
بحاجة أوروبا ، ولم يجد فرصة للحصول على معلومات جارية للعصر . وحيث أن
تعلق كاتب جلبي عن علم اللاهوت المسيحي أقدم بألف عام . . فإنه من المدهش أن
قائمة الباباوات قد اختفت بعد ذلك بقرن .

وأفضل تفسير عن البابوية وعن المسيحية الأوروبية قدمه السفير المراكشي الوزير
الغساني الذي زار إسبانيا في نهاية القرن السابع عشر ، وكان لديه قدر كبير من
المعلومات ليس للحديث فقط عن البابا ، ولكن عن تنظيم البابوية ودور الكرادلة ،
والطريقة التي ينتخب بها البابا الجديد ، ويبدو أن النظام كله قد أثار غضبه الخاص فكان

كل ذكر عن البابا يقدمه بسباب لعنات ، ويستمر في مناقشة تلك الأمور محكمة التفتيش الدينية التي اضطهدت السيد ، وتاريخ الإصلاح الديني ، والديانات اللاحقة التي اصطدمت مع المملكة المسيحية ، حتى أن يذكر شيئاً عن الإصلاح الديني في المجترا الذي أرجعه إلى المشاكل المادية للملك هنري الثامن . ودون شك . . فإن هناك نقاطاً وثيقة تجمعت عليه نتيجة لوجوده في إسبانيا . وكانت مناقشاته تدور أحياناً حول الممارسة الكاثوليكية للاعتراف ، وعن الأضرار التي أدت إلى ظهورها ^(١٤) ولقد ترتب على ذلك أن المبعوثين المراكشيين إلى إسبانيا اتبعوا ما ذكره في مناقشته عن الكنيسة وهيئاتها وتناول عديداً منها بإسهاب مثل محكمة التفتيش الدينية .

ومن الموضوعات القليلة التي يبدو أنها أثارت اهتماماً ما بين هؤلاء الزائرين المسلمين إلى أوروبا موضوعات ترتبط بالإسلام نفسه ؛ ففي الأماكن القليلة لنجح السكان المسلمون في البقاء في البلاد التي عادت إلى الحكم المسيحي . وبطبيعة الحال . . كانت تلك الأماكن تجذب بعض الاهتمام . ولقد كان ابن واصل مهتماً بالعشور على سكان مسلمين لا يزالون يعيشون في جنوب بلاد إيطاليا تحت حكم النورمان : "وبالقرب من البلد الذي كنت نازلاً به مدينة تسمى لوجره أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية ، تقام فيها الجمعة ، ويعلن بشعار الإسلام ، وهي على هذه الصفة من عهد أبيه الإمبراطور . وكان منفريدا قد شرع في بناء دار علم بها ليشتغل فيها بجميع أنواع العلوم النظرية . ووجدت أكثر أصحابه الذين يتولون أموره الخاصة به مسلمين . ويعلن في معسكره بالأذان والصلاة" . ويلاحظ ابن واصل أن "البابا كان قد حرم منفريدا ليله إلى المسلمين وخرقه ناموس شرعهم" ^(١٥) .

ولقد طرد المسلمون من صقلية وإيطاليا بعد مرور وقت مناسب . وظلوا موجودين لبعض الوقت في إسبانيا حتى بعد قرار إبعادهم سنة ١٤٩٢ ، ولقد منح كل المسلمين واليهود فسي مملكة إسبانيا حق الاختيار : إما التحول إلى عقيدة جديدة أو النفي أو الموت ، ولقد نجحت طائفة مسلمة تعرف باسم الموريكوس في البقاء لبعض الوقت ، وقامت بعديد من التمردات ضد التاج الإسباني ، وفي وقت ما نجحوا في السيطرة على

مدينة غرناطة ، ولقد اتجه المسلمون الإسبان سواء قبل أو بعد هزيمتهم النهائية لطلب المساعدة من العثمانيين أكبر قوة مسلمة في ذلك الوقت ، ولكن لم يكن لطلبهم هذا تأثير كبير . حقيقة .. قام العثمانيون بالمفاوضات مع الموريكوس وحاولوا بوسائل مختلفة نصحهم ومساعدتهم من حين لآخر . ولقد أرسل مبعوث عثماني سري لتنسيق العلاقات والمعلومات والتحركات بين إسبانيا وشمال أفريقيا ، واسطنبول ، ولكن كانت هذه قضية خاسرة .. فبعد فترة من الزمن اتبع الموريكوس أسلافهم في اختيار النفي .

وبدا يظهر موقف مشابه في الانسحاب العثماني من وسط أوروبا . وفي معظم الاماكن المسيحية التي أعيد فتحها .. كان يتبع الفتح رحيل المسلمين باستثناء الفتح الروسي لأراضي التتار . وحتى القرن التاسع عشر .. فإن السكان المسلمين كانوا تحت الحكم المسيحي جوهرياً . وقد ظل كل هذا في أي مكان آخر باعثاً للاهتمام بالعهود الماضية وذكريات الماضي الإسلامي . ولقد كان على المبعوثين المراكشيين إلى إسبانيا ، والمبعوثين العثمانيين إلى وسط وجنوب أوروبا المرور غالباً عبر المقاطعات الإسلامية ، التي فقدت نتيجة لإعادة الفتح المسيحي . وتظهر المجموعتان تشابهاً ملحوظاً .. فمثل الزائرين الأوروبيين للشرق الذين يبحثون عن آثار الماضي الكلاسيكي والمسيحي .. فإن الزائرين المسلمين لأوروبا كانوا مهتمين بالبقايا الإسلامية ، وكانت تحركهم النقوش الإسلامية . وهكذا .. فإن السفير الغساني يسجل أن سكان مكان ما في إسبانيا يسمى Villafrance- Palacios هم من تبقا أحياء من الأندلسيين ، وهي كلمة تعبر عن السكان المسلمين الأوائل بإسبانيا فدمهم دم العرب ، وتختلف وسائل عيشتهم عن وسائل الأجانب (Ajam) ويولهم نحو المسلمين ، ورغبتهم أن يكونوا معنا وحنهم عند الرحيل كل هذا يشير بصورة قاطعة إلى أنهم هم بقايا الأندلسيين ، وكان قد مر وقت طويل أقاموا خلاله بين غير المؤمنين اللهم احفظنا" ، وادعى الغساني وجود Crynto - Muslim تسلم منحني وهو ٢٥ - Belos الذي جاء مع ابنه "لها نفس المظهر العربي" والذي قام بعمل "إشارات غامضة" صدقها السفير ، بالرغم من عدم وجود أي إثبات يشير إلى أنه مسلم مختلف^(١٦) .

أيضاً وجد السفراء العثمانيون وسيلة للتعبير عن التعاطف بينهم وبين رعاياهم السابقين في ضجاريا وفي جنوب بولندا . وهكذا . . فإن عزمي أفندي الذي مر عبر ضجاريا عام ١٧٩٠ يسجل قمة الصداقة والود التي أظهرها تجاهه وتجاه الامبراطورية العثمانية بصفة عامة (١٧) .

ويشير المبعوثون العثمانيون الذين كانوا يمرون عبر المقاطعات التي فقدت في وسط وجنوب أوروبا إلى الشعور الدافئ الواضح من تلك الشعوب تجاه أسيادهم السابقين . وأكثر دهشة من هذا أن السفراء المراكشيين إلى إسبانيا في أواخر القرن الثامن عشر اكتشفوا وجود عاطفة متشابهة .

ويحذر Keenly من البقايا الإسلامية الكثيرة في تلك البلد ، الذين اندسوا في الحياة الدنيا واعتقد بعض المبعوثين من مراكش أن المسيحية في إسبانيا كانت تطفو على السطح فقط ، وأن الموالين المسلمين القدماء في انتظار ظهورهم مرة أخرى . ويبدو أن تشويه البقايا المسلمة قد أدى غالباً إلى قلق الزائرين المسلمين ؛ فقد طالب الغزال المراكشي أثناء زيارته لغرناطة بأن يوضح حجر عليه فقط باللغة العربية ، بطريقة تليق به ؛ بحيث يصبح من السهل قراءته : بل يزعم أنه أثناء زيارته لجامع في Cordove أصر على نزع حجر عليه نقوش عربية دينية ، كان يستخدم للتبليط . وقد كان للمأذن اهتمام باستعمالها ؛ فوجدوها في إسبانيا قد استخدمت كمنارة ، أخرى في Serbi استخدمت كبرج ساعة ، وقد أزعج هذا الزائرين المسلمين ، ولم تكن الجماعات سالمة من التدينيس فيسجل زائر تركي لبلغراد بعد فترة قصيرة من احتلال النمساويين لها ، أن البعض منها يستخدم كمنازل (١٨) ، وكان هذا دليل آخر على العادات القذرة لغير المؤمنين .

وقد ظهر شعور آخر في كتابات الزائرين المسلمين للمناطق ، التي فقدت في كل من شرق وغرب أوروبا ، وهو أن تلك المناطق هي أراضي مسلمة ، اغتصبت بطريقة غير قانونية من الإسلام ، ويقدر لها أن تعود حتى أن الاحتلال القصير كان كافياً لظهور مثل هذا الحق . وهكذا . . ففي عام ١٧٦٣ ، كان رسمي أفندي يزور حصن

Kanuniets ، الذي شيده العثمانيون في الفترة من ١٦٧٢ - ١٦٩٩ ، فحركه منظر المثذنة بتاريخ تأميمها الإسلامي وآيات القرآن : " عندما قرأت هذا النقش تفوهت بالدعاء من قلبي بأنه سيسعد الخالق أن تعود تلك الأماكن سريعة إلى الإسلام ، حتى تدوي كلمة الحق من فوق هذه المثذنة " (١٩) .

أيضاً فيما بعد عام ١٧٧٩ .. كان السفير المراكشي Muhammed ibn jthmen atmihnasi لإسبانيا يتتبع الفلكي الأول لأسماء المناطق كلها ، مع ذكره عبارة " اللهم ردها إلى الإسلام " (٢٠) .

وبصفة عامة .. فقد نظر المسلمون إلى المسيحيين على أنهم أصحاب ديانة الإسلام ، وحتى عندما كانت الجيوش المسيحية بعد فتح مقاطعة تلو مقاطعة في إسبانيا ، وفي جنوب أوروبا بعد ذلك كان .. ينظر إليها كخطر سياسي وعسكري ، أكثر منه ديني . وفي الحقيقة .. فإن التحولات العنيفة من الإسلام إلى المسيحية كانت نادرة جداً ، ففي الأراضي المسلمة .. كان الارتداد - وهو التحول من النظرة المسلمة- كان جمعاً عظيماً ، حتى أنه في الأراضي المسيحية كانت القوانين المسلمة تشجع المسلمين هناك على الهجرة بدلاً من الاستسلام للحكم المسيحي ، وعندما يجبرون على التحول كانت أخلاقهم مشكوكاً فيها .

أول خطر ملاحظ من الغرب للمعتقدات المسلمة جاء مع الثورة الفرنسية ، عندما كانت الدعاية لأول مرة موجهة للمسلمين بالإسم ، وليس للديانات القديمة ، ولكن للمذاهب الجديدة الفاتنة . وظهرت إشارات عثمانية تحذر من مثل هذا الخطر في المذكرة التي خططها للسكرتير العام العثماني في ربيع سنة ١٧٩٨ ؛ ليضمه مجلس الدولة الأعلى ؛ مفسراً أصل الأحداث الأخيرة في فرنسا ويشرح السكرتير العام : " إن الملحميين المعروفين والمشهورين روسو وفولتير أوسعوا شتماً وسباباً ضد الرسل والأنبياء والملوك الكبار ، وعملوا على محو وإزالة الدين ، مع تلميحات عن حلوة المساواة ونظام الجمهورية ، وعبروا عن كل هذه الكلمات ، في عبارات سهلة الفهم على شكل سخيرة وبلغة عامة الشعب " (٢١) .

لقد ادعى الغزو الفرنسي لمصر ظهور أفكار جديدة ، دفعت الامبراطورية العثمانية إلى شن ما يعرف في الوقت الحاضر بالحرب النفسية ، وذلك من خلال البيانات الموجهة إلى رعايا السلطان بكل من العربية والتركية ، ولقد وصف خبث الثورين في النهاية :

"إن الأمة الفرنسية (اللهم دمر بلادهم وحط من لانهم لانهم كفر طغاة ودائم التمرد) لا تؤمن بوحداية إله السموات الأرض ولا تؤمن ببشرى الشفاعة في يوم القيامة ، ولكنها تخلت عن الدين كله ، وأنكرت وجود الآخرة وعقوبتها ؛ فهم لا يؤمنون بيوم البعث ، ويدعون أن هذا يحطنا على مر الزمن ، ولا يوجد شيء إلا الرحم الذي يبعثنا والأرض التي تبثنا ، ولا يوجد أي بعث أو حساب ، أبعد من هذا . . فلا توجد اختبارات أو عقوبات أو أسئلة أو أجوبة . . فهم يبلغون أن الكتب التي أتى بها الرسل خطأ واضح ، وأن القرآن والتوراة والأنجيل ليست إلا أكاذيب وأحاديث باطلة ، وأن هؤلاء الذين يدعون أنهم رسل . . يكذبون على الشعب الجاهل . . وأن كل الناس متساوون من حيث إنسانيتهم ، ومتشابهون بكونهم آدميين ولا أحد لديه أي تفوق مميز على الآخر ، وكل شخص مسئول بنفسه من ردمه وتنظيمه لمعيشته في هذه الحياة . وعلى هذا الاعتقاد الباطل والرأي الوقح . . أسسوا مبادئ جديدة ، ووضعوا قوانين وأنشأوا ما همس به لهم الشيطان ، وحطموا أسس الديانة ، ومنحوا أنفسهم حق تحريم الأشياء وسمحوا لأنفسهم بما تشتهي ، وجذبت آراؤهم عامة الشعب الذين أصبحوا مجانين ومخرفين ، وأشاعوا الفتنة بين الدين والعرض ، وأثاروا الخلاف بين الملوك والدول .

ويحذر كاتب البيان قراءه من التعليق الفرنسي :

(كانوا يوجهون أنفسهم تجاه كل جماعة يكتب كاذبة وأكاذيب منمقة ويقولون "نحن نتمنى لكم ولديانتكم ولجماعتكم" ، ويقدمون لهم وعوداً باطلة يتفوهون كذلك بوعيد مخيف).

وحيث إن هذا الفساد كان شائعاً في أوروبا . . فإن فرنسا تحولت تجاه الشرق وبعد ذلك . . تحولت مؤامراتهم الشريرة تجاه أمة محمد . . * (٢٢) .

لقد كانوا واقعاً ملموساً ، ولأول مرة - منذ بداية الإسلام - يواجه تحدياً مذهبياً وفلسفياً ، هدد كل التأسيسات المذهبية والاجتماعية المسلمة فلا يوجد شيء مثله من قبل ، فبعد الهزيمة والاستحواذ على مجتمعات الشرق الأوسط القديم . . واجه الإسلام ثلاث حضارات رئيسية : في الهند والصين وأوروبا . واحدة فقط من تلك الحضارات ، هي الثالثة كان ينظر إليها كصاحبة ديانة تستحق التقدير ، وأنها تمثل تشكياً سياسياً وعسكرياً خطيراً بديلاً للقوى الإسلامية . ولكن الديانة المسيحية كانت تراجع دائماً أمام الإسلام ، وكانت أحسن محاولات القوة المسيحية هي الحفاظ على نفسها أمام تقدم الأسلحة المسلمة . حقيقة في بداية العصر الوسطى . . واجه علم الكلام الإسلامي تحدي العلم والفلسفة الهلينية ، ولكن هذا كان محصوراً في حيز ضيق فقد جاء كتراث حضارة مهزومة ولكن جزءاً من التراث الهليني انحصر واندمج مع الإسلام وطرح الباقي جانباً .

أما التحدي الجديد الذي ظهر للإسلام عن طريق الحياة الدنيا الأوروبية . . فقد كان أمراً مختلفاً تماماً مجاله أوسع وقوته أكبر ووجوده أقوى ، إلى جانب ذلك أنه لم يأت من عالم مهزوم ، ولكنه من عالم منتصر . . فلسفة حرة عما تضمنته النظرة المسيحية ، وقد عبرت المجتمع الغني القوي الذي كان يتوسع سريعاً . وقد بدت لبعض المسلمين أنها تحتوي على سر النجاح الأوروبي والتقدم ضد العنف والفقير . وفي خلال القرنين : التاسع عشر والعشرين كان للنظام الديني الأوروبي وسلسلة المذاهب السياسية والاجتماعية والاقتصادية وقع السحر على أجيال المسلمين المتابعة .